سلسلة: علماء الإسلام وملحمتهم التقويمية عبر التاريخ

مقدمات نحو صياغة أنموذج منظوري إرشادي إسلامي عام في الفقه والعلوم

(10) صناعة الفقه:

الأصولية الجعفرية والاجتهاد المؤطر بالأسطورة الهمجية

الحلقة الثالثة

كيف طرقت الأسطورة الشيعية الساحة الإسلامية

على عكس الممارسة التاريخية للخلفاء الراشدين الأربعة، في تدبير سياسة الدولة الناشئة ب "الشورى"، كما تقدم في الحلقة السابقة، والتي لا يختلف حول وقائعها أحد من المسلمين كمعطى خام، سنلاحظ أن كل فرق الشيعة وتشظياتها اللاحقة، ستلجأ إلى الأسطورة للتنفيس عن مكبوتاتها، كلما خانها التوفيق السياسي وراكمت من الفشل الذريع في تحقيق أهدافها.

وقد اشتهرت من فرق الشيعة على الخصوص فرق نسبت إلى كل من ابن علي بن أبي طالب من غير فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم:

1) محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية (ت: 81 هـ)، كفرقتي: الكربية، والكيسانية،..وغيرهما من التشظيات،

2) وحفيد علي الأدنى: زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت: 122 هـ) بالنسبة لحزب الزيدية، وإلى أخ الأخير:

3) محمد الباقر (ت: 114 هـ)، وبالخصوص إلى ابن الأخير:

4) جعفر الصادق (ت: 148 هـ) بالنسبة لفرق الشيعة الغلاة الثلاثة:

أ) الأفطحية، المتولية لابن جعفر الصادق البكر: عبد الله الأفطح،

ب) والإسماعيلية المتولية لابنه الثاني: إسماعيل،

ت) والموسوية المتولية لابنه الثالث: موسى،

هذا مع العلم، بأن دعوى أحقية أهل البيت في حكم المسلمين، كغيرها من الدعاوى القبلية الأخرى، لا سند شرعي لها من كتاب أو سنة، على ما تبين لنا.

وسيظهر هذا المنحى الدنيوي **الصرف لدى الأطراف، بمجرد سقوط الدولة الأموية، واستئثار العباسيين وهم من بني عمومة النبي صلى الله عليه وسلم، بالحكم دون بني عمومتهم العلويين، وهو استئثار سيؤدي إلى ثورات متلاحقة للأخيرين عليهم، كانت أولاها ثورة محمد بن عبد الله الكامل المعروف بالنفس الزكية (ت: 145 هـ) أيام أبي جعفر المنصور العباسي (ت: 148 هـ) التي قامت بالمدينة، والتي ساندها الإمام مالك بن أنس (ت: 178 هـ)، وثورة أخيه إبراهيم (ت: 145 هـ) بالبصرة بالعراق، والتي ساندها الإمام أبو حنيفة (ت: 150 هـ)، وهما قطبان من أقطاب أهل السنة والجماعة، من بين أقطاب آخرين.**

والملاحظ في هذا السياق، أن الفرع الفاشل في تحقيق غرضه السياسي، وكما في أنموذج سوريل، هو من كان يلجأ دوماً إلى توظيف الأسطورة بشكل مكثف في دعايته السياسية، للإبقاء على شعلة الثورة متقدة بين الأتباع، وفي انتظار أن يواتيه الظرف الأمثل للاستيلاء على الحكم.

وهو منحى ما لم نلحظه مثلاً في دول مثل:

أ) **دولة الأدارسة، نسبة إلى جدهم الأعلى إدريس بن عبد الله الكامل (إدريس الأول) (ت: 177هـ /793م)[1]، الفار مع مولاه راشد إلى المغرب، ناجياً بنفسه من وقعة فخ[2]، قرب مكة، والذي بايعته قبيلة أوربة المغربية بقيادة زعيمها: إسحاق محمد بن عبد الحميد الأوربي في مدينة وليلي، وهي مدينة رومانية قديمة (صورة من أطلالها اليوم)**

[1] إدريس الأول وهو إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي ابن أبي طالب و فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم

[2] في سنة 169هـ/786 م قامت ثورة أخرى، بعد مرور 24 سنة على فشل ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، بقيادة الحسين بن علي بن الحسن المثلث في ناحية مكة بمكان اسمه فخ. ولم تنجح هاته الثورة أيضاً حيث قضى عليها الخليفة الهادي بن المهدي العباسي في معركة قتل فيها كثير من العلويين ونجا منه بأعجوبة إدريس.

، يوم الجمعة 4 رمضان سنة 172هـ الموافق 6 فبراير 789 م. قبل أن تتوالى بيعة باقي القبائل المغربية، ليقوم صرح هذه الدولة بهذا القطر القصي من العالم الإسلامي

(الخريطة). واستمرت إلى سنة 304 هـ/927 م {أنظر تسلسل ملوكها[3]}

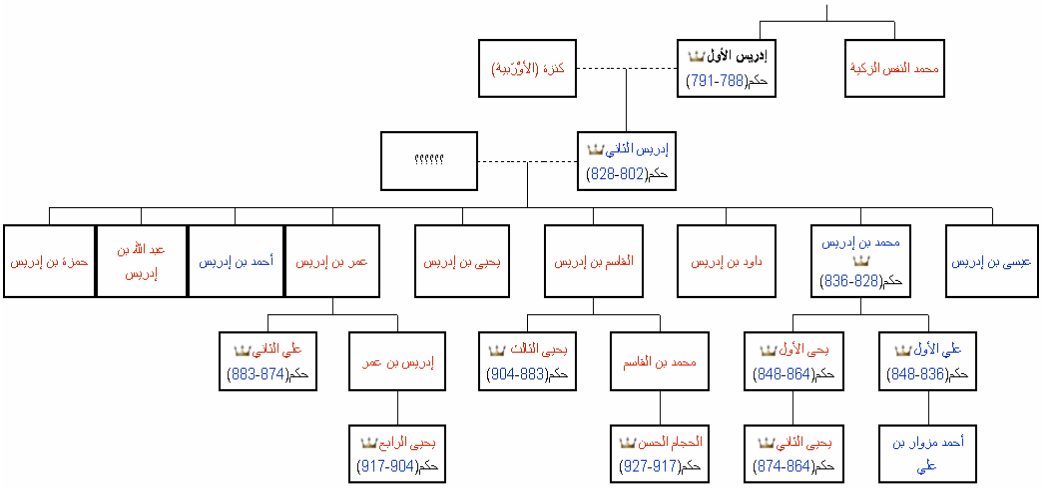

ب) والزيدية، التي استطاعت إقامة دولة باليمن بذات الطريقة التي سلكها إدريس الأول في المغرب. فقد أسسها **يحيى بن الحسن الطالبي** الذي كان يعيش بالمدينة المنورة وسافر إلى اليمن بطلب من أهله فالتفوا حوله واستقر في صعدة عام 284 هـ . ولما أراد التوسع اصطدم بحكام اليمن في صنعاء عام 285 هـ، فعجز عن دخولها، إلا ليحالفه النجاح عام 288 هـ

[3] إدريس الأول: موسوعة ويكيبيديا

بمساعدة الأئمة الزيود من بني الرس في صعدة، ثم جاء بعده الإمام **المنصور يحيى** الذي دام حكمه من عام 325 هـ حتى عام 366 هـ، وخلفه **يوسف الداعي** الذي امتد حكمه من 366 وحتى 430 هـ، قبل أن يدب الضعف في الدولة لتدخل في مسلسل من عدم الاستقرار، بين مد وجز وحتى سنة 566 هـ حين برز إمام بني الرس **أحمد بن سليمان**.

بينما راكمت ذرية **جعفر الصادق** من الفشل الذريع في تأسيس الدولة إلى وقت متأخر جداً، وهو ما ساعد على وجود تربة خصبة لتبني الأسطورة بين السياسيين المنتمين لهذا الحزب، لتدخل نفق الغلو من بابه الواسع، حال **الإسماعيلية** و**الإحدى عشرية**.

قلت:

ولكون المنظرين المبرزين للحزب **الإحدى عشري** بالذات عاشوا في **العراق العجمي (إيران)**، ومدينة **قم** بالخصوص، وكون الإيرانيين مخترين **بالأسطورة السياسية**، على ما يجد المرء بذهول في كتاب: "**الشاهنامة**" 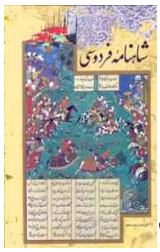

للشاعر الشعوبي: **أبي القاسم حسن بن على الطوسي الشهير بلقب: الفردوسي (حوالي 319 هـ/931 م – حوالي 367 هـ/ 977 م)** ، فلم يكن غريباً أن تطغى **الأسطورة السياسية** على هذا الحزب، لثلاثة أسباب متضافرة:

أ) **البيئة الاجتماعية الحاضنة،**

ب) الشعوبية الدفينة،

ت) الفشل السياسي.

وبناءً على هذه الخلفية، فلم يكن غريباً ولا كان خارج أعراف المنطقة أن يطور هؤلاء المنظرون نماذج سياسية في الحكم تلعب الأسطورة دوراً رئيساً ومحوريا فيها ، بعيداً كل البعد عما حصل في الواقع التاريخي، أو ما يمكن أن يستنبط بداهة من ظواهر النصوص، حال: قولهم بأسطورة المهدي {أنظر كتابنا: "المهدي اللامنتظر لا عند اليهود ولا عند الشيعة ولا عند السنة ولا عند البرتغال"

، على هذا الموقع}، أو حال: قياسهم للإسلام على نماذج سياسية ضيقة ومتشرنقة، تجاوزها الإسلام بحكم عالميته، ك الحكم العشائري لأسباط بني إسرائيل، الذي هو نوع من الحكم القبلي كشرعة خاصة، لأسباط بني إسرائيل، لم يقصد منه قط، تجاوز "القومية الضيقة " لبني إسرائيل وخصوصيتهم إلى ما وراءهم من الأمم، ك الإسلام[4]، المرسل للعالمين.

وهو حكم أثبت فشله الذر يع مباشرة بعد وفاة النبي - الملك سليمان عليه السلام

وتسلسل الحكم في ذريته

. {أنظر على هذا الموقع: " الإفساد الأول لبني إسرائيل

كخلفية للتأويلية اليهودية "

.

[4] وهذا واضح في أكثر من آية قرآنية كما في سورة يونس، الآية 83: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون﴾، وفي سورة البقرة، الآية 47: ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين﴾، وفي سورة الأعراف، الآية 128 : ﴿قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا﴾ وغيرها. فالعالمية لم تبدأ سوى مع الرسالة المحمدية، كما في سورة الأنبياء، الآية 107: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

قلت:

ولا يمكن بحال إجراء أية مقاربة أو مقارنة ما بين أنموذج الحكم القبلي كما تجسد عند أسباط بني إسرائيل، وكل الأقوام الغابرين قبلهم أو بعدهم، وأنموذج الحكم الإسلامي الحداثي العالمي الصالح لكافة العالمين بكل قومياتهم وشعوبهم وأممهم، كما جاء بذلك صريح محكم الآيات القرآنية ضمن الرسالة المحمدية الخاتمة، سوى كتمرين في العبث واللامعنى!.

ومن هذا المنطلق، ومن صريح تجارب التاريخ الرسالي نفسه ومقاصديته، فلا يمكن، وفي المطلق، أن تفرض طاعة أمة على أخرى، ولا قومية على أخرى، ولا تبعية أمة لأخرى، مادامت الرسالات اتجهت في أول أمرها، إلى كل قومية قومية على حدة، لا تتعداهم إلى غيرهم:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ فاطر: ٢٤

وكذلك:

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ النحل: ٣٦

وغيرهما من الآيات في ذات المعنى.

ومنطوق هذه الآيات المحكمات صريح في إلغاء مثل هذه الخصوصيات القومية ضمن العالمية الإسلامية الخاتمة الجديدة، بحيث لا يبقى لها من اعتبار، سوى بما أفرزته الشورى الموسعة بالتراضي بين أفراد المجتمع بصفتهم الفردية، من باب التعارف العام بين الشعوب والأمم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ الحجرات: ١٣

وظاهر من سياق وفحوى هذه الآية أن الأسبقية النوعية هي: للذكر والأنثى، ولا استحقاق للتكريم، على صعيد الفرد الحر، القابل للمحاسبة على أفعاله الاجتماعية، **سوى بالتقوى**.

فلا مفاضلة إذن، في **مجتمع عالمية الرسالة الإسلامية الخاتمة** سوى بالتقوى والعمل الصالح لا غير.

ولا يبقى هناك من اعتبار، بعد زوال **العصبيات والقبليات**، سوى للأفراد أنفسهم، مشخصين بصفتهم **الفردية المطلقة** فحسب، **كفاعلين اجتماعيين مسئولين وأحرار في إطار التوافق والتراضي والسلم الاجتماعي**. إ

إذ كلهم سواسية كأسنان المشط في الحقوق والواجبات في هذا الأمر، ولا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأصفر على أسود، ولا لأسود على أبيض سوى بالتقوى والصلاح، بحكم هذه السوابق التاريخية، وهذه العالمية الطارئة الخاتمة.

ولا يخفى أن **الإسلام وحده، وكدين عالمي خاتم لكل الأديان**، كان لا بد وأن يعترف **بحقوق كافة الأديان الأخرى في أن تعيش في كنفه وتتعبد بعبادتها**، بل وتحكم أتباعها بشريعتها، دون أن تعتبر أتباعها بفعلهم هذا، أنهم بمثابة **دولة بداخل الدولة**، ولا أن هذا الصنيع يخرجهم بحال من مظلة "**الأمة المؤمنة من دون سائر الناس**"، بحسب أحد بنود دستور المدينة.

وتتجلى وفق هذا المنظور إحدى المفارقات الكبرى في **التنظير السياسي الشيعي**، المتمحور أساساً حول شخص "**الإمام**"، كما تصوره وتخيله منظرو الشيعة، والذي ستُدّعى له

مقامات وأحوال، لا تختلف في شيء عن تلك التي، ترجع بالأصالة إلى **الرسول الخاتم ﷺ وحده!**، كما نجدهم يضعون على لسان **محمد الباقر**[5]:

من ادعى مقامنا (يعنى الإمامة) فهو كافر!

قلت: وأنا **ابن العترة** غير مدفوع:

لو كان قد حصل لنا اليقين بصدور مثل هذا الكلام من الباقر، وليس مما اخترعه الغلاة ونسبوه زوراً وبهتاناً إليه، لجزمنا بكفر الباقر نفسه قبل غيره وللعناه فوق رؤوس الأشهاد وإلى يوم يبعثون، لأنه:

أ) لم يكتف فقط بإفك ادعاء ما ليس له بحق وهو حكم المسلمين دونهم، بل،

ب) تجرأ على تكفير المسلمين، بسبب هذه الفرية، التي يعلم من نفسه بطلانها قبل غيره.

فهذا تخريف يستقي أفكاره من تضاعيف غلو غير ملجم بأزمّة تمنعه من الشطط، بالإضافة إلى كونه لا يتفق، لا مع رسالة الإسلام، كما استعرضنا بعض ملامح بنودها أعلاه، ولا مع روحه، ولا مع مقاصديته في الخلق، ولا مع عدالته، ولا مع عالميته، ولا مع خاتميته، كما جاءت صريحة ومحكمة كل الإحكام، لا تحتمل التسويف ولا التأويل من خلال قوله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾ الأحزاب: ٤٠

[5] أنظر نظائره في: "البحار" (7: 212) و8: 363، و25: 110-115، و72: 138)، و"مناقب آل أبي طالب (1: 25)، و"الكافي"،(1: 373)، و"تفسير العياشي" (1: 178)، وكتاب: "الغيبة للنعماني" ص: 73،72،71،70 و"ثواب الأعمال،" للصدوق، ص. 206.

فلا وراثة نبوية هنا، كما حصل مع ذرية إسحاق الذكور، الذين سيولع منظرو **الإحدى عشرية** من المتح من أنموذجهم، بقياس **عليّ بن أبي طالب** إزاء الرسول الخاتم ﷺ إما على **هارون** مع أخيه **موسى**، أو على **يشوع بن نون** فتى **موسى** مع الأخير!، بينما لا وحي جديد منتظر، مادامت الإنسانية في عالميتها الخاتمة هذه، قد خرجت وإلى الأبد من طور طوق القبلية والخصوصية، إلى طور رحاب التعارف الأممي الراشد بلا حدود، بحيث لا مجال للمعجزات الحسية كما حصل في الماضي، وإنما المعجزة الخبرية الخالدة للقرآن وحده، لإنسانية خرجت من طور الأمية ودخلت طور القراءة، بحيث أصبح في مقدور البشرية أن تسير شؤونها بنفسها مسترشدة بمبادئ القرآن وحده في سياحتها الوجودية على هذه الأرض.

قلت: وعلى عكس هذه المقاصدية في الرسالة الخاتمة، سنجد **منظري الإحدى عشرية**، ولعين أشد الولع، بمثل هذه الاختراعات الخبرية المخالفة لما أثر عن أئمتهم في الواقع، ناسجين للقصص وللخرافات في تضليل الأمة جمعاء، سوى من أنفار لا يتعدون بهم أصابع اليد الواحدة![6]، بينما نقلوا عن **عليّ** نفسه بأنه سمع من في رسول الله ﷺ قوله[7]:

لا تجتمع أمتي على ضلاله

وهو القائل للخوارج، بعد أن خطئوه وضللوه بعد التحكيم[8]:

فإن أبيتم إلا أن تزعموا إني أخطأت وضللت فلم تضللون عامة أمة محمد ﷺ بضلالي!؟

بل، سيذهب التنظير ببعضهم شوطاً بعيداً في الغلو، إلى درجة رفع مكانة هؤلاء **الزعماء الدينيين**، من حيث المقامات والأفضلية، إلى درجات فوق مقامات الأنبياء والرسل والملائكة

---

[6] فعندهم أن الصحابة ارتدوا كلهم بعد وفاة الرسول ﷺ إلا من المقداد وأبي ذر وسلمان الفارسي.

[7] "بحار الأنوار" (5: 20 و68، 16: 350 و399، و44: 36). ، و"الإحتجاج للطبرسي" ص، 450 "إرشاد القلوب"(2: 225)،

[8] "بحار الأنوار" (33: 373).

المقربين، وجعلهم مفروضي الطاعة![9]، من خلال منطق معكوس، يقوم أولاً على التنظير، ثم

بالبحث لاحقاً عن النصوص، المقطوعة السياق، أو الملوية العنق بالتأويل البعيد أو المغرض، لتتوافق مع تنظيرها المخترع، وليس مع محكمات النصوص، ولا مع متطلبات التنزيل الواقعي لها!، كما يتضح من خلال النص التالي لأحد منظري الإحدى عشرية المعاصرين وهو الشيخ

محمد رضا المظفر (1322 هـ/1904 م - 1382 هـ/1962 م)

يقول[10]:

نعتقد!! أن "الإمام" ك "النبي!!!"، يجب أن يكون معصوماً!، من جميع الرذائل والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت!، عمداً أو سهواً!، كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ!، والنسيان![11].(...).

قلت: اعتقاد باطل مبني على شفا جرف.

---

[9] وقد أفرد أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت: 328 هـ)، الذي تطلق عليه الجعفرية لقب "ثقة الإسلام"، مع أنه من الأخبارية العتاة، المؤمنين الجازمين بتحريف القرآن!، في كتابه: "الأصول من الكافي"، بتحقيق علي أكبر غفاري، ط. رابعة 1392 هـ/1972 م، منشورات المكتبة الإسلامية، أبواباً لهذه المسألة. وهكذا نجد في "الكافي" (1: 227): "باب أن الأئمة يعرفون جميع الكتب على اختلاف ألسنتها!"، و في "الكافي" (2: 5) :"باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي يعلمها الملائكة والأنبياء والرسل"، وفي "الكافي" (2: 8): "باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون! وأنهم لا يموتون إلا باختيارهم!"، وفي "الكافي" (2: 10): "باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون!، وأنه لا يخفى عليهم شيء!"..إلخ. بل غلوا في الأئمة وقالوا على ألسنتهم الكفر البواح، مما نعلم من سيرتهم استحالة صدور مثله عنهم، مثل ما جاء في "أصول الكافي" (1: 197) على لسان عليّ بن أبي طالب برأه الله من إفكهم: {أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب الحصاد الميسم، ولقد أقرت لي جميع الملائكة! والروح !بمثل ما أقرت لمحمد ﷺ، وغيرها من الدواهي، مثل ما جاء في "الكافي" (2: 128) من: "أن الإمام لا يخفى عليه كلام أحد من الناس ولا طير ولا بهيمة ولا شيء فيه روح!!، و"أن حديثهم لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل!!" كما في "الكافي" (2: 343)،..إلخ. 😊 قلت: وسنأتي في طي هذا الكتاب، على تبرؤ هؤلاء الأئمة من هؤلاء الزنادقة الغلاة الضالين الملحدين فيهم والمفترين الأراجيف والأكاذيب عليهم.

[10] الشيخ محمد رضا المظفر: "عقائد الإمامية"، ص. 95.

[11] مما يعني أن هؤلاء الأئمة هم فوق الأنبياء من هذه الحيثية، لأنه ورد في حق آدم ﷺ في سورة طه، الآية 115: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾، وعن موسى ﷺ في سورة الكهف، الآيتان 61، و63، بخصوص الحوت: ﴿فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ ، ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾. وقال سبحانه وتعالى مخاطباً نبيه موسى ﷺ في سورة طه ، الآية 40: ﴿وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا﴾. فهذه دعاوى باطلة ومغالية لمخالفتها النصوص القرآنية المحكمة.

ويضيف بخصوص علم هذا الإمام الخرافي المخترع!، الذي لم يتطابق قط مع أيّة شخصية تاريخية من أئمتهم المعروفين![12]:

وأما **علمه**، فهو يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات عن طريق النبي أو الإمام قبله. وإذا استجد شيء، لا بد أن يعلمه من طريق الإلهام بالقوة القدسية!!، التي أودعها الله فيه!. فإنه إن توجّه إلى شيء وشاء أن يعلمه!! على وجهه الحقيقي! لا يخطئ فيه!، ولا يشتبه، ولا يحتاج في كل ذلك إلى البراهين العقلية!، ولا إلى تلقينات المعلمين!، وإن كان علمه قابلاً للزيادة والنقصان! (...).

ويقول بخصوص هذه القوة القدسية"!!"، التي ما أنزل الله بها من سلطان!، ولا ورد بها ذكر من كتاب أو سنة![13]:

إن قوة الإلهام!!! عند الإمام، التي تسمى ب "القوة القدسية"!!! تبلغ الكمال! في أعلى درجاته!!! فيكون في صفاء نفسه القدسية!، على استعداد لتلقي المعلومات في كل وقت!، وفي كل حالة![14]. فمتى توجه إلى شيء من الأشياء وأراد معرفته، استطاع !!علمه بتلك القوة القدسية الإلهامية!! بلا توقف

---

[12] نفس المرجع، ص. 96.

[13] نفس المرجع، ص. 97.

[14] أي وكأنه بمثابة رادار ملتقط مفتوح على التخريف!

ولا ترتيب مقدمات ولا تلقين معلم!. وتتجلى في نفسه المعلومات، كما تتجلـــى المرئيات في المرآة الصافية!!.

قلت: فالتخريف هنا واضح ولا غبار عليه.

أما كيف يكون الإمام كالنبي ولا نبي بعد خاتم الأنبياء!؟ وكيف يدخل من النافذة ما أخرجه صريح محكم النصوص من الباب الواسع!؟ فلا يناقش مع أمثال هؤلاء، وإنما يستتابون أو يقاتلوا على فريتهم.

ويعجب المرء أن يصادف، وفي القرن الحادي العشرين، مخرف من هذا الحجم، كأحفوري متكلس، لما عرف به العرفان الشرقي بمراياه المجلوة كاستعارات، على ما كنا نجد عند المتصوفة والعرفانيين الشرقيين المسيحيين، ونقله عنهم من تأثر بهم من المتصوفة المحسوبين على الإسلام[15]، يحيى هذه الحياة الطويلة التي لا تأخذ بعامل الزمن ولا بالتطور البشري في الاعتبار، لترسو كأفكار مخثرة ومعتقة عند المظفر في عقائده الدوغماتية المخترعة هذه، التي ما أنزل الله بها من سلطان، بل ولا برهان له عليها سوى ما سول له مخياله وشيطانه!، مادمنا نعلم يقيناً افتراء كل هذا الهراء على آل البيت رضوان الله عليهم، من طرف الغلاة الملعونين على لسانهم، وهم منه براء، بحسب ما نقلوا أنفسهم في كتبهم ومراجعهم عن جعفر الصادق ﷺ[16]:

لعن الله المغيرة بن سعيد[17]. إنه كان يكذب على أبي (الباقر) فأذاقه الله حر الحديد، لعن الله من قال فينا ما لا نقوله في أنفسنا، ولعن الله من أزالنا عن العبودية لله الذي خلقنا، وإليه مآبنا ومعاذنا، وبيده نواصينا.

---

[15] أنظر بهذا الخصوص كتابنا: "التأويلية الإسلامية في ماضيها وحاضرها: آفاق المستقبل".

[16] رجال الكشي. ص. 302، الترجمة رقم: 542.، ضمن مجموعة "بحار الأنوار" للمجلسي..

[17] كان يقول بمهدوية محمد (النفس الزكية) بن عبد الله (الكامل) (: 145 هـ)، قبل أن يتحول بعد استشهاد الأخير إلى مغال جلد.

قلت: ولا يسع المرء سوى القول مع **جعفر الصادق** ﷺ:

لعن الله من سولت له نفسه ابتداع مثل هذه العقيدة الخبيثة، التي ترفع هؤلاء الأجلاء عن محض العبودية المطلقة، ونسبها بهتاناً وزوراً إليهم وهم منها براء، بل سيأتي من لعن الصادق ﷺ لبعض هؤلاء بألف لعنة، كل لعنة بألف لعنة، تتبعها ألف لعنة كما أطلق في حق يونس بن ظبيان (ت: 203 هـ!) أحد القائلين بتحريف القرآن والمعتقدين جازمين بذلك.

مع أنهم ينقلون في نصوصهم عن عليّ كرم الله وجهه قوله![18]:

والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتموني إليها وحملتموني عليها فكرهت خلافكم

فهناك إذن، مفارقة ضدية نقيضية، ما بين سلوك أهل العترة في الواقع، المتوافقة مع منطوقات القرآن في التصرف والسلوك، كما هو منتظر من بيت النبوة، وما تخيل ونظر هؤلاء الغلاة المدعين الانتساب إليهم، سواء أكانوا منضويين تحت لواء الإسماعيلية أو الإحدى عشرية، كل من منظوره الخاص، في أئمتهم التاريخيين أو الخرافيين المزعومين!.

ثم، هناك فوارق نوعية أخرى بين الشيعة، على اختلاف طيفهم السياسي من: زيدية، وإسماعيلية، وجعفرية إحدى عشرية، بخصوص مواصفات هؤلاء الأئمة عند كل منها، وتتلخص مواقفهم منها في الآتي:

أولاً: أن الأئمة عندهم جميعاً يعتبرون المفسرين والشارحين للشريعة، وأن أقوالهم عند الإسماعيلية والإحدى عشرية تشكل جزءاً من الحديث!، بالإضافة إلى الأحاديث النبوية!، إلا أن التمييز بين الاثنين يظل قائماً.

[18] "بحار الأنوار" (32: 30 و50)، و"أمالي الطوسي" ص.، 740، و"نهج البلاغة" ص. 397.

ثانياً: أن التشريع لدى الشيعة يعتبر، من حيث المبدأ، عملية مستمرة، مادام الإمام على قيد الحياة. وهو ما انقطع، بالنسبة لكل فرق الشيعة التاريخية: الإحدى عشرية، مع موت آخر أئمتهم التاريخيين الحسن العسكري سنة 260 هـ، إلا أنهم سيدعون، ضمن تناذرهم المهدوي الأسطوري، ولادة ابن له اختفى في سرداب سر من رأى بالعراق!، ليخرفوا ويهرفوا، بأنه دخل أولاً في غيبة صغرى"،[19] في أطول مسرحية أسطورية عرفها التاريخ!، دامت حوالي سبعين سنة وانتهت سنة 329 هـ، ليدخل في طور شرنقي جديد، في بيات سرمدي على شكل: غيبة كبرى مباشرة بعد الغيبة الصغرى، والتي لا زالت مستمرة في عرفهم واعتقادهم إلى اليوم!، وأنه حيّ! ويحكم العالم!!!!!!.

وهو منحى أسطوري، لا يختلف عما ادعته الإسماعيلية في إمامها المستور!، الذي لا يزال حياً بدوره عندهم!، ولا يعترف بوجود الأول!، بل هو الحاكم الأسطوري الفعلي لعالم الخرافة هذا بدله!، ويعيش من جيل إلى جيل!.

ثالثاً: الإسماعيلية والإحدى عشرية كلاهما، تؤمنان بعدم إمكان قيام حكومة مثالية، إلا بحضور مهديهما الخرافي الأسطوري بعينه،! المختلف عند كليهما!.

وبالتالي فهو تبرير مستمر لكل نقص أدائي في الحكم، مادام شرط صلاح الحكم يتوقف على حضور هذه العنقاء الأسطورية: المهدي! الغير موجودة أصلا.

وهو ما يدخل ضمن تصنيفية المنظورية السياسية الأسطورية، المرتكزة على فرد كتجسيد ل "الأسطورة"، كما في أنموذج جورج سوريل السياسي من هذه الجهة!.

ولا شك، أن إطلاق اسم حكم إسلامي! على مثل هذا التنظير الخرافي، يمتح من المجازات اللغوية، والمغالطات السفسطائية، والانزياحات الدلالية المصطلحية، كأمراض تعتري اللغة، وليس ينطبق بحال، على ما في نفس الأمر، كما سيتبين لنا بعد قليل.

[19] أنظر تفصيل ذلك في كتابنا: "كيف تمت هندسة فيروس اسمه أدونيس؟" ص. 81، و"المهدي اللامنتظر.." ص. 124.

وأمكن، من هذه الحيثية، أن نطلق على أصحاب مثل هذا المنظور السياسي العقدي النظري في الحكم اسم: " **الأسطورية السياسية في تصور الحكم**". وهو تصور محدث في الدين ولا يجد سنده لا من القرآن ولا من السنة، كما تبين لنا، وإنما من موروث المنطقة وتراثها الذي لا تخطئه العين[20].

قلت: ومن هذه الحيثية، فهاهنا **خلاف منظوري جوهري، وبرزخي، ومفصلي** بين كل فرق المسلمين **ومن ضمنهم الشيعة الزيدية** من جانب، اللاتي لا تعتمد أيٌّ منها الأسطرة في التنظير السياسي، وفرقتي الشيعة **الإحدى عشرية** و**الإسماعيلية** في الجانب المقابل.

ولا يمكن البتة ردم هوة هذا الخلاف العقدي، ولا ملء فجوته البرزخية المنظورية، سوى بنبذ هذا المنطلق الخرافي الأسطوري، الذي لا يجد مبرره التأصيلي، لا من الكتاب، ولا من السنة الصحيحة المتفق عليها بينهم جميعاً.

بل، ومن المتيقن اليوم، وبأثر رجعي، أن انشغال الصحابة بأمر الفتوحات، كان قد دهاهم عن الانشغال بما سواها من أمور تنظيم المجالات المجتمعية والسياسية الأخرى، رغم دخول العشرات من الشعوب والأمم الجديدة في الإسلام أفواجاً، وما كان يتطلب كل ذلك، من اجتهادات ومعالجات مواكبة على صعيد السياسة والمجتمع وأنماط أساليب الحكم وأجرأته.

ولا شك كذلك، وبعد مرور الزمن الكافي، وسكون قرقعة السلاح التاريخية، وتقادم كلوم الجراح الغائرة، وإن لم نكن لننتظر، جفاف دماء بعض جداولها الأكثر غوراً في الوجدان، ثم من واقع تجارب التاريخ كمحك، والرؤية المعاصرة المتوفرة لنا عن الأحداث ومجريات الأمور، كما حصلت في التاريخ، وليس كما نظر لها المنظرون المثاليون أو المؤدلجون العقديون، أن أصبح

---

[20] أنظر كتابنا: "المهدي اللامنتظر لا عند اليهود ولا عند الشيعة ولا عند السنة ولا عند البرتغال".

بإمكاننا اليوم، أن نصدر أحكاماً أكثر واقعية، وأقل نرجسة وتحامل على الوقائع والأشخاص، مما كان ممكناً في أيّ وقت مضى.

ومن خلال هذا الوعي المتجدد بإشكالية تاريخية، استعصت لفترة طويلة عن أيّ حل، فلا يحق لنا موضوعياً ولا أخلاقيا ولا منهجياً، من حيث المبدأ، أن نسقط رؤانا، أو وتحليلاتنا، أو تجاربنا، على وقائعهم وتجاربهم، بمقايسنا المعاصرة، دون الأخذ بمثل هذه المسلمات المنهجية في الاعتبار، ثم من باب التوجيه القرآني الملزم في قوله تعالى[21]:

﴿ تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤ ﴾ البقرة: ١٣٤

أي: الأمر الملزم شرعاً، بطي صفحة الماضي جملة، والتوجه نحو المستقبل وليس إلى الوراء.

وهذا، لا يعني بالطبع، عدم الاستفادة من تلك التجارب، ولا عدم الاعتبار بها، خصوصاً والقرآن الكريم نفسه، يحث على ذلك في غير ما موضع:

﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٢ ﴾ الحشر: ٢

تنبيها وتحذيراً من الوقوع في ذات المحاذير وذات الأخطاء القاتلة، التي وقع فيها السلف الصالح نفسه كفتن، ولم يستطيعوا تلافيها، ولا الإفلات من تبعاتها، وعلى تربيتهم العالية من طرف الرسول ﷺ، مادام الكل محكوم بالقانون الافتتاني العام:

[21] سورة البقرة، الآية 134.

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ البقرة: ٢١٤

وكذلك:

﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ ﴿٤٠﴾ ﴾ طه: ٤٠

قلت: ويظهر جلياً، لو كان مسموحاً لنا أن نسقط واقعنا وتجربتنا ومعارفنا عليهم بأثر رجعي، أن أول ما كان يتوجب أن يعالج كأسبقية ضمن سلم الأولويات، وضمن السياق التاريخي للمسلمين، حسب ظروفهم وشروطهم، هو المواءمة المأسساتية لمفهوم "الشورى" نفسه، كروح، وكممارسة، وكفعل اجتماعي وسياسي، ليتكيف ويتوافق من حيث الإجرائيات، مع الواقع السياسي المستجد، كي يستطيعوا مسايرة التحولات الهائلة التي طرأت على الدولة الإسلامية الناشئة، التي تحولت، وفي أقل من ثلاثة عقود، من دولة جنينية "مدينية" كمشروع مجتمعي، قوامها الأساسي ثلة قليلة من العرب المسلمين، وبعض العرب المتهودين، المتجانسين من حيث الجنس واللغة، والأعراف، والعادات والتقاليد وبساطة تنظيم المجتمع، وكفاف اقتصادياته وسبل العيش فيه، إلى دولة حداثية بالمفهوم المعاصر، مترامية الأطراف، واسعة الغنى، ومخضرمة الأمم، ومتنوعة الشعوب والعقائد، والأحزاب، والأرومات، والأجناس، واللغات، بل والحضارات، كانت قد امتدت، إلى حدود سنة 35 من الهجرة، وهي سنة بداية الحرب الأهلية الأولى في تاريخ الإسلام الحداثي، إثر استشهاد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ومبايعة

علي كرم الله وجهه خليفة راشداً رابعاً للمسلمين، من: مدينتي طرابلس وبرقة[22] غرباً واليمن جنوباً، وتخوم السند وأفغانستان[23] شرقاً، وجزيرة قبرص[24]، والتخوم الجنوبية لهضبة الأناضول[25] وما وراء القوقاز[26] شمالاً (الخريطة)

ونجاحهم في تحقيق كل هذا، وفي ظرف وجيز كهذا، يحسب لصالحهم، وليس عليهم، لأنه كان عليهم تحييد إمبراطوريتين عظيمتين تحكمتا لقرون في مصائر هذه الشعوب.

ولا شك أن إزالة نفوذهما كان يتقدم على أيّ اعتبارات أخرى، كالاعتبارات السياسية والدستورية. فهم في حالة استثناء حتى إشعار آخر.

قلت: وبالرغم من نجاح **دولة الأمويين**، من حيث التسيير والتنظيم الإداريين للدولة، كإمبراطورية سياسية امتد بها العمر زهاء القرن، استشارت في تنظيمها وإدارتها بخبرة قاعدتها السياسية الغسانية الشامية، التي عملت لقرون كتابع سياسي يدور في فلك **الدولة**

---

[22] غزاها عمرو بن العاص للفترة 22 هـ/ 642 م - 27 هـ/ 647 م

[23] ظلت فارس في حكم الساسانيين حتى سنة 15 هـ/ 637 م إلى أن غزاها كلها الصحابي سعد بن أبي وقاص خلال الفترة الممتدة ما بين 15 هـ/ 637 م إلى 30 هـ/ 650 م، ودخلت خراسان وسجستان وطبرستان في حكم المسلمين بعد سنة 30 هـ. وفتح نواحي هراة من أفغانستان أوس بن ثعلبة سنة 32 هـ/ 652 م، ونواحي بلخ منها الأحنف بن قيس سنة 33 هـ/ 653 م.

[24] تنازعها المسلمون والروم ابتداءً من سنة 29 هـ/ 649 م.

[25] توالت عليها الفتوحات الإسلامية سنوياً بدءاً من سنة 16 هـ/ 637 هـ.

[26] أغار عليها عياض بن غنم سنة 20 هـ/ 640 م، وفتحها حبيب بن مسلمة (24 هـ/644 م - 32 هـ/ 652 م).

البيزنطية، وتأثرت بأساليبها ونظريتها في الحكم الإمبراطوري القيصري، إلا أن فشلهم كان ذريعاً على كل الصعد الأخرى، وخصوصاً ما له علاقة مباشرة بتوزيع الثروة، والعدل الاجتماعي وأسس تداول الحكم، والمقاربات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المخالفة كل المخالفة، لما كان عليه الأمر أيام الخلافة الراشدة.

بل إن أهم مأخذ على الأمويين، عند غالبية الأحزاب السياسية الإسلامية المعارضة لهم، إنما تمحور بالأساس، حول هذه الانقلابية على الأنموذج الراشدي، الذي بدل أن يعملوا جاهدين على تطويره نحو الأفضل، مستفيدين من مقدمات أسباب الحرب الأهلية، والنتائج المأساوية التي ترتبت عليها، بغية تحصينه من تكرار مثلها، كما هو عين منطق الأشياء، وخصوصاً ما بعد المصالحة العامة، إثر تنازل الحسن بن عليّ لمعاوية بن أبي سفيان في الحكم، وجدناهم عملوا بالعكس على تكريس القطيعة مع تلك المرحلة، حتى غدا الحكم الشوري في مخيال المسلمين طوباوية بعيدة المنال ومتعذرة التحقيق على أرض الواقع!.

وكانت النتيجة الحتمية لمثل هذه الانقلابية المفهومية في تدبير السياسة وإدارة الشأن العام، أن ربع الاستبداد السياسي من جديد، دائرة الحياة والممارسة السياسة على كل الأجيال اللاحقة التي سوف تأتي من بعدهم، والتي ستظل سجينة استقطاب عقيم وغير منتج سياسياً، يتأرجح فقط ما بين ثنائية إقصائية من نمط: معهم أو ضدهم، لتسجنهم جميعاً بداخل هذه المفارقة الضدية في تعذر إمكان الجمع، ما بين متطلبات ثوابت الشرع ومتطلبات متغيرات السياسة، ومنعتهم بالتقليد البليد، والاستبداد المقيت، من الخروج من حتميتها ومركزيتها، إلى فضاءات أرحب أو أوسع، بحسب ظروفهم، وأزمانهم، وواقعهم، وتماشياً مع ما يحث عليه الشرع نفسه وظاهر النصوص المحكمة بإلحاح!.

وقد حصل كل هذا المخاض الهائل في جيل واحد، عاصر فيه أولئك الرواد الأوائل، انقلابية مجتمعية ثورية عارمة، حملتهم من أسفل درك الاستضعاف والامتهان الأممي، إلى قمة ذرى السؤدد الدولي، مع الحضارة المميزة والتمكين في الأرض.

وهي صيرورة، ما كانت لتخطر على بال أحدهم قط، أو يراها في حلم أو يتصورها في خيال!.

انتهى وتليه الحلقة الرابعة

في البداية كانت الشورى